سكان الريف وتاريخهم

ترد الاخبار يومياً عن سكان الريف الذين يحاربون الاسبانيين بحماسة فائقة . والريف من المغرب الاقصى وهو الطرف الشمالي الغربي من افريقية وسكانهُ وجانب كبير من سكان الجزائر وتونس وطرابلس الغرب والمغرب الاقصى كلهِ ليس من العرب بل من البربر وهم جنس كان مقيماً في تلك البلاد وقت الفتح الاسلامي . وقد اطلعنا الآن على مقالة في وصفهم وتاريخهم للكولونل هوكنس قال فيها ان بلاد الريف جبليَّة وسكانها بيض الوجوه وهم ليسوا من زنوج افريقية ولا من اصل عربي فإن العرب الذين فتحوا مراكش والجزائر وتونس وجدوها حافلة بالسكان . وقد تعاقب عليها الفاتحون قبل ذلك من الفينيقيين والرومانيين والفندال فلم يستطيعوا ان يقضوا على سكانها الاصليين ولا ان يخضعوهم اخضاعاً تامًّا فكانوا يستردون استقلالهم كلما تقلَّص ظلُّ الفاتحين . وانما اقتبسوا الدين من الفينيقيين واللغة من الرومانيين واللباس من الفندال . وقد تمكَّن العرب من جعلهم يدينون بدينهم ويتكلمون بلغتهم ولكن «الاماثل» منهم لا يزالون الى اليوم محتفظين باصلهم واخلاقهم التي ذكرها بلينيوس ومار اوغسطينوس . وقد كان مار اوغسطينوس منهم

وآراء الباحثين مختلفة في اصل هؤلاء الاقوام وكيف جاؤوا الى افريقية فقال البعض انهم من الفلسطينيين الذين طردهم اليهود من ارض كنعان وان بطلهم جالوت المذكور في تقاليدهم انما هو جليات المذكور في التوراة . وقال كثيرون من العلماء الفرنسويين انهم من الرعاة الذين اجتاحوا القطر المصري وامتلكوهُ زمناً طويلاً . ولكن كاد يثبت الآن انهم من اصل بعض الامم الاوربية كالاسبانيين القدماء والاثر سكانيين وقد امتزج دمهم بدم الامم التي تغلبت عليهم ولكن هذا الامتزاج كان قليلاً فبقوا محتفظين بصفاتهم الجنسية

ويظهر من تاريخهم انهم دوخوا اوربا مرتين لان اكثر جنود هنيبال كان منهم وكذلك كان اكثر جنود العرب الذين فتحوا اسبانيا ورقوها في العلوم والفنون حتى فاقت كل ممالك اوربا في ذلك العهد . ويقال انهم تنصروا في عهد الامبراطورية الرومانية ومن المؤكد ان اهالي الريف منهم يستعملون الآن الحساب المسيحي الغريغوري وبعض الطقوس المسيحية ويرسمون رسم الصليب على جباههم ويكثر اسم مريم بين نسائهم

وقبائل البربر التي منها سكان الريف تشمل قبائل الجزائر وسكان جبال اطلس

من حدود الجزائر شمالاً الى مراكش جنوباً ومنهم شلوح بلاد السوس في اقصى الجنوب وطوارق الصحراء الملثمين الذين يظن انهم لجأوا الى تلك المواطن من وجه العرب في القرن الحادي عشر

واهل الجهات الشمالية منهم اقوياء الابدان شداد الاعصاب رجالاً ونساء يسهل عليهم تحمل البرد والزمهرير في قنن الجبال. وهم في الغالب شقر الشعور بيض الوجوه الاّ اذا لوّحتهم الشمس . يجبون الزراعة ويتعاطون الاعمال المختلفة ولا يسكنون الخيام كالبدو بل بيوتاً مبنيّة مسقوفة . واما اهل الجنوب منهم فاقصر من اهل الشمال قامةً واشد منهم سمرةً لاختلاط دمهم بدم الزنوج. ولباس بربر سواحل بحر الروم والاوقيانوس يختلف عن لباس العرب . ويحلقون رؤوسهم كالعرب ولكنهم يتركون فيها غديرة في شمال الرأس يتدلّى شعرها كما كان يفعل شبان المصريين الاقدمين ولاسيما في عهد توت عنخ امون

وكان اهالي الريف قبل زعيمهم عبد الكريم قبائل متفرقة لكل قبيلة جماعة من شيوخها تتولى ادارتها والقضاء فيها وجباية الاموال منها وتعيين العقيد الذي يقود رجال القبيلة الى الحرب لكن عبد الكريم جمع شملهم ونظم جيوشهم فابدوا ما ابدوا من البأس والبسالة الفائقة وحسن الانتظام . وهم اقوياء الابدان اهل نجدة يحبون الصيد والقنص ماهرون في الالعاب الرياضية تراهم اذا قضوا اعمالهم وارادوا الراحة عكفوا على لعب الكرة والمصارعة والمسابقة . وفي لغتهم كثير من الكلمات اللاتينية والعربية . ولغة طوارق الصحراء بعيدة عن العربية بعدها عن الفرنسوية والانكليزية . وللاخذ بالثار شأن كبير عندهم . وهم يزرعون ويحصدون وكلٌّ منهم متنكب بندقيته والديدبان واقف في محرسه . ورجالهم يعاملون نساءهم احسن معاملة وهم مثل الاوربيين من هذا القبيل . والضرار نادر عندهم ولا يعرفون تحجب النساء فترى نساءهم يسرن بين الرجال سافرات وبناتهم قديكنّ جميلات المنظر وهنّ ذكيات في الغالب ولثيابهنّ رونق وحلاهنّ متقنة الصنع اخصها ابزيم من الفضة لحبك طرق الشال

ثم ان سكان الريف في الشمال والطوارق في الجنوب يأبون الخضوع لدولة اوربية والباقون منهم راضون على ما يظهر بحماية فرنسا . وترى المرشال ليوتي معجباً بنشاطهم واخلاقهم القوية وحماستهم الحربية . ولا تنسى فرنسا استبسالهم وتفانيهم في الدفاع عن فردون ولا يبعد ان وسائل العمران الجديدة كالتعليم وحسن الادارة واصلاح وسائل النقل والانتقال تأول الى ترقيتهم اقتصادياً ومدنياً